خلق أفعال العباد

للإمام

محمد بن اسماعيل البخاري

تحقيق وتقديم

الدكتور عبد الرحمن عميرة

الطبعة الثانية

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار عكاظ

جدة ـ طريق الميناء ـ ص . ب ٥٩٤١
الرياض ـ شارع التليفزيون ص . ب : ٢٩٣٤

خلق أفعال العباد

ما أخرجت خراسان مثل
محمد بن اسماعيل البخاري

احمد بن حنبل

لو فتحت باب الثناء على « البخاري » ممن
تأخر عن عصره لفنى القرطاس ونفدت
الأنفاس ، فذلك بحر لا ساحل له .

الحافظ ابن حجر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الخلق بقدرته ، وأوجد العالم بحكمته ، وسخر لبني آدم الأرض والسماوات . ومنحهم السمع والأبصار والأفئدة وأعطاهم من كل ما سألوه .

وأصلي وأسلم على النبي الأمي الكريم ، الذي بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين .

يطيب لنا ان نقدم للأمة الإسلامية عامة ، وطلاب المعرفة خاصة كتاباً من أنفس الكتب التي عرفتها المكتبة الإسلامية وأكثرها فائدة . ألا وهو « كتاب خلق أفعال العباد » . للإمام محمد بن إسماعيل بن ابراهيم البخاري ، والكتاب يعد من أواخر الكتب التي ألفها الإمام الكبير في آخر حياته ، وكان الغرض من تأليفه بيان القول الفصل في قضية من القضايا التي شغلت المسلمين فترة طويلة من حياتهم وتباينت فيها أقوالهم . وهي قضية خلق أفعال العباد وهذه القضية زعمت فيها الجبرية ، ورئيسهم الجهم بن صفوان : أن التدابير في أفعال الخلق كلها لله تعالى ، وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة ، وحركات الأشجار ، واضافتها إلى الخلق مجاز . ومما استدلت به الجبرية قول الله تعالى :

« وما رميتَ إذ رميت ولكن الله رمى » (١)

فنفى الله عن نبيّه الرمي واثبته لنفسه سبحانه . فدل على أنه لا صنع للعبد . قالوا والجزاء غير مرتب على الأعمال بدليل قوله ﷺ « لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ... ؟

---

(١) سورة الانفال آية رقم ١٧

قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » .

وذهب سائر المعتزلة ومن وافقهم على ذلك من المرجئة ، والخوارج والشيعة إلى أن أفعال العباد محدثة ، فعلها فاعلوها ولم يخلقها الله عز وجل على تخليط منهم ، ومما استدلوا به على قولهم هذا قول الله تعالى :

« فتبارك الله أحسن الخالقين » (١)

فمعنى الآية : أحسن المصورين المقدرين ، والخلق يذكر ويراد به التقدير وهو المراد هنا بدليل قوله تعالى : « الله خالق كل شيء » (٢) .

أي الله خالق كل شيء مخلوق . قد خلق أفعال العباد في عموم « كل » . وما أفسد قولهم في ادخال كلام الله تعالى في عموم « كل » الذي هو صفة من صفاته تستحيل عليه أن يكون مخلوقاً ، وأخرجوا أفعالهم التي هي مخلوقة من عموم « كل » (٣) .

وموقف أهل السنة كلهم ومن وافقهم من بعض الطوائف الأخرى أن أفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد . ووافقهم على هذا موافقة صريحة من المعتزلة ضرار بن عمرو وصاحبه أبو يحيى حفص الفرد وبرهانهم على ذلك قول الله تعالى :

« هل من خالق غير الله » (٤)

وقال أيضاً : « والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً » (٥) ولقد شغلت هذه القضية إمامنا البخاري – وقتاً كبيراً من الزمن وتعود فكرة اخراج هذا الكتاب عند الإمام البخاري إلى تاريخ إخراجه من نيسابور بعد أن تقول عليه بعض القائلين بأنه يقول : (لفظي بالقرآن مخلوق). ولقد عرضنا في تقديمنا لهذا الكتاب موضوع هذا الاتهام وملابساته والظروف التي أحاطت به . ولا يسعنا إلا أن نترك القارىء مع هذا الكتاب الذي نعتبره نفحة من نفحات السلف الصالح ، التي قد تخفف الكثير مما يعانيه بعض المسلمين من هجير الحياة وسموم المضلين . وقبل أن نترك هذا المجال سنقدم عرضاً موجزاً لحياة الامام البخاري والظروف التي ألمت به .

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٤
(٢) سورة الرعد آية ١٦
(٣) شرح الطحاوية ص ٣٨٩
(٤) سورة فاطر آية ٣
(٥) سورة النحل آية ٢٠

الإمام محمّد بن إسماعيل البخاري

جواب ضاقت الدنيا عن آماله ، وظاعن عاش حياته يفتش في صدور الرجال عن أحاديث الرسول ﷺ ومؤمن نشر عبير الإيمان في كل قلب. وروح التوحيد في كل نفس .

.. لم تكن الدنيا العريضة مقصده ، ولا مباهجها المفرحة مطلبه ، ولم تكن كنوزها وجواهرها من هدفه او غايته .

لأن الذي كان يبحث عنه غالي وثمين لا يحاز بالمال ، ونادر لا يشترى بالذهب . وحبيب إلى النفوس المؤمنة ، فلا يحفظ إلا في شغاف القلوب وأعماق الأفئدة .

وكان هذا العمل الجليل يحتاج إلى همم الرجال ، وعزيمة الإيمان ، وصبر الأبطال .

ولم يكن البخاري ضخم الجسم ، أو قوي التراكيب ، أو عملاقاً بين الرجال وإنما كان وكما يصفه الرواة نحيف الجسم ، كأنه عود يتحرك . مكدود القوى لكثرة الظعن والإقامة. منهوك البدن ، لعزوفه عن الطعام وملذات الحياة لانشغاله بما هو أدوم وأبقى .

ولادته ونشأته ..

كانت ولادته سنة أربع وتسعين ومائة من الهجرة في بلدة « بخارى » أعظم مدن ما وراء النهر التابعة « لتركستان » الغربية — في ذلك الوقت وكانت تلك المدينة يحيط بها سمرقند وفرغانة وطاشقند (١) تلك البلاد الاسلامية التي كانت تموج بالعلم وتذخر بالثقافة ، وترفع راية الإسلام . وتعلي صرح الدين وتنشيء أبناءها على التقوى ومكارم الأخلاق .

وكان والد البخاري شيخاً فاضلاً وعالماً جليلاً تلقى علومه على مجموعة من خيرة الرجال منهم الإمام مالك وحماد بن زيد رضي الله عنهما . ولقد ترجم ابن حبان لهذا الشيخ في كتاب « الثقات » وترجم له الإمام البخاري في « التاريخ الكبير » .

وقد جمع هذا الوالد الجليل إلى العلم الورع والتقوى . روي عنه أنه قال عند وفاته : « لا أعلم في مالي درهماً في حرام ولا في شبهة »

ومات هذا الوالد وترك ابنه صغيراً فكفلته أمه ، وأحسنت تربيته ووجهته إلى طريق

---

(١) هذه البلاد تحت الحكم الالحادي الروسي الآن .

الخير والفلاح ، وهيأت له حياة رخية هانئة ، ساعدته على القيام بهذا العمل الكبير الذي رصد حياته له .

نبوغه وسعة حفظه

رزق الله سبحانه وتعالى الطفل الصغير اليتيم — محمد بن اسماعيل البخاري ذهناً وقاداً ، وقلباً واعياً وحافظة قوية . واتجه إلى السنة النبوية فأخذ منها بحظ كبير ، وكان يختلف إلى علماء عصره وأئمة بلده فأخذ عنهم وتعلم على يدهم الكثير .

وما كاد يبلغ العاشرة من عمره ؛ حتى كان يعرف كلام أهـــل الرأي وأصولهم ومذاهبهم .

قال الفربري (١) : سمعت محمد بن أبي حاتم — وراق البخاري — يقول : سمعت البخاري يقول : ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتّاب .

قلت : وكم أتى عليك إذ ذاك .. ؟

قال : عشر سنين أو أقل ، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر ، فجعلت اختلف إلى الداخلي وغيره ، فقال يوماً فيما يقرأ للناس : سفيان عن أبي الزبير ، عن ابراهيم .

فقلت له : إن أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم ، فانتهرني ، فقلت له : ارجع إلى الأصل إن كان عندك ، فدخل ونظر فيه ثم خرج ، فأخذ القلم وأصلح كتابه وقال : صدقت .

فقال للبخاري رجل : ابن كم كنت حين رددت عليه ... ؟

فقال : ابن احدى عشرة سنة ، فلما طعنت في ست عشرة حفظت كتب ابن المبارك (٢) ووكيع (٣) ، وعرفت كلام هؤلاء — يعني أصحاب الرأي . قال ثم خرجت مع أمي وأخي إلى الحج .

وقال محمد بن أبي حاتم — وراقه — سمعت حاشد بن اسماعيل (٤) وآخر يقولان كان البخاري يختلف معنا إلى السماع وهو غلام ، فلا يكتب ، حتى أتى على ذلك أيام ، فكنا

---

(١) الفربري : ٢٣١ — ٣٢٠ هـ
هو محمد بن يوسف . راوية صحيح البخاري . قال النووي : روينا عن الفربري أنه قال : سمع الصحيح من البخاري سبعون ألف رجل فما بقي أحد يرويه غيري ، ونسبته إلى فربر بكسر الفاء وسكون الباء قرية ببخارى .
(٢) هو عبد الله بن المبارك شيخ الإسلام من كتبه « الجهاد » و « الزهد » ولد ١١٨ هـ ومات ١٨١ هـ
(٣) وكيع بن الجراح : كان محدث العراق في عصره رفض تولية القضاء ولد ١٢٩ — ومات ١٩٧ هـ
(٤) هو حاشد بن اسماعيل البخاري محدث الشاش أحد أئمة الأثر وله رحلة واسعة مات ٢٦١ هـ

نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب ، فما معناك فيما تصنع .. ؟ فقال لنا – بعد ستة عشر يوماً – إنكما أكثر تما علي ، فأعرضا عليّ ما كتبتما ، فأخرجنا إليه ما كان عندنا ، فزاد على خمسة عشر ألف حديث ، فقرأها كلها عن ظهر قلب ، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه .

ثم قال : أترون أني أختلف هدراً ، وأضيع أيامي ، فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد ، قالا : فكان أهل المعرفة يغدون خلفه في طلب الحديث – وهو شاب – ويغلبونه على نفسه ، ويجلسونه في بعض الطرق ، فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه ، وكان شاباً .

وقـال محمد بن أبي حاتم : سمعت سليمان بن مجاهد يقول : كنت عند محمد بن سلام البيكندي (١) فقال لي : لو جئت قبل لرأيت صبياً يحفظ سبعين ألف حديث . قال : فخرجت في طلبه فلقيته .

فقلت أنت الذي تقول : أنا أحفظ سبعين ألف حديث .. ؟

قال: نعم وأكثر ، ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم . ولست أروي حديثاً منها من حديث الصحابة والتابعين – يعني من الموقفات – إلا ولي في ذلك أصل أحفظه حفظاً عن كتاب الله وسنة رسوله – ﷺ .

قال وراقه : قدم رجاء الحافظ فقال لابي عبد الله ما أعددت لقدومي حين بلغك .. ؟ وفي أي شيء نظرت .. ؟

قال : ما أحدثت نظراً ولا استعددت لذلك، فإن أحببت أن تسأل شيئاً فافعل، فجعل يناظره في أشياء . فبقي رجاء لا يدري . ثم قال البخاري : هل لك في زيادة .. ؟

فقال استحياء منه وخجلاً : نعم .

ثم قال : سل إن شئت ، فأخذ في أسامي أيوب ، فعد نحواً من ثلاثة عشر ، وأبو عبد الله ساكت ، فظن رجاء أنه قد صنع شيئاً .

فقال : يا أبا عبد الله فاتك خير كثير ، فزيف أبو عبد الله في أولئك سبعة وأغرب عليه أكثر من ستين رجلاً . ثم قال لرجاء : كم رويت في العمامة السوداء .. ؟

قال : هات كم رويت أنت .. ؟

---

(١) هو محمد بن سلام من حفاظ الحديث كان محدث ما وراء النهر ومن شيوخ البخاري نسبه إلى بيكند بقرب بخارى ولد ١٦٠ هـ وفاته ٢٢٥ هـ

قال : أروي فيها أربعين حديثاً ، فخجل رجاء ويبس ريقه .

وقال البخاري رحمه الله : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف حديث غير صحيح ، وأخرجت هذا الكتاب – يعني الجامع الصحيح من نحو ستمائة ألف حديث .

وقال : دخلت بلخ فسألوني أن أملي عليهم لكل من كتبت عنه ، فأمليت ألف حديث من الف شيخ .

وقال : تذكرت يوماً في أصحاب أنس ، فحضرني في ساعة ثلاث مائة نفس (١) هذا هو الإمام البخاري الحافظ العالم المحدث ، اسلم نفسه لمولاه وأوقف حياته لجمع حديث رسوله – ﷺ – ففتح الله بصيرته وبصره ، وهداه إلى الخير ، وسهل له الصعب . وعاش حياته مجداً لا يمل ومكافحاً لا يكل حتى قدم للأمة الاسلامية أصح كتاب جامع لأحاديث الرسول – ﷺ – المصدر الثاني من مصادر الشريعة الغراء .

إن الإمام البخاري – الذي حباه الله اللمحة الواعية ، والفكرة الصادقة والذهن اللماح. أعد اعداداً من قبل العناية الإلهية – لهذه المهمة الجليلة – مهمة حفظ السنة وجمعها – وفرز الصحيح الصادق الذي جاء به خاتم البشرية – من الموضوع الذي ادعاه أصحاب النفوس المريضة والقلوب الحاقدة من اليهود واتباعهم فلا عجب ان تكون ذاكرته حافظة وعقليته واعية ، وقلبه مليئاً بالإيمان .

زهد البخاري وورعه

قال البخاري – رحمه الله – : ما اغتبت أحداً قط منذ علمت أن الغيبة (٢) حرام . وكان يقول : إني لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً وكان البخاري في منزله ؛ فجاءته جارية ، وأرادت دخول المنزل فعثرت على محبرة بين يديه ، فقال لها : كيف تمشين .. ؟

قالت : إذا لم يكن طريق كيف أمشي ؟ فبسط يديه ، وقال اذهبي فقد اعتقتك .

قيل له : يا أبا عبد الله أغضبتك .. ؟

فقال : أرضيت نفسي بما فعلت . (٣)

---

(١) هدي الساري مقدمة فتح الباري للحافظ ابن حجر
(٢) هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري ص ٤٧٨
(٣) المصدر السابق ص ٤٧٧

وحكى وراقه : أنه ورث عن أبيه مالاً جليلاً ، وكان يعطيه مضاربه فقطع له غريم خمسة وعشرين ألفاً ، فقيل له استعن بكتاب الوالي فقال : إن أخذت منهم كتاباً طمعوا ، ولن أبيع ديني بدنياي . ثم صالح غريمه على أن يعطيه كل شهر عشرة دراهم وذهب ذلك المال كله (١) .

قال وراقه : ركبنا يوماً إلى الرمي ونحن بفربر فأصاب سهم أبي عبد الله وتد القنطرة التي على النهر ، فانشق الوتد . فلما رأى ذلك نزل عن دابته فأخرج السهم من الوتد وترك الرمي وقال : ارجعوا ، فرجعنا فقال : يا أبا جعفر إن لي إليك حاجة — وهو يتنفس الصعداء — فقلت: نعم قال: تذهب إلى صاحب القنطرة ، فتقول له: إنا أخللنا بالوتد ، فتحب أن تأذن لنا في إقامة بدله أو تأخذ ثمنه ، وتجعلنا في حل مما كان منا ، وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر ، فقال لي : أبلغ أبا عبد الله السلام وقل له :«أنت في حل مما كان منك ، فإن جميع ملكي لك الفداء ، فأبلغته الرسالة ، فتهلل وجهه وأظهر سروراً كثيراً ، وقرأ ذلك اليوم للغرباء خمس مائة حديث ، وتصدق بثلاث مائة درهم . »

إن هذا الصنف من الرجال الذي تربى في مدرسة الإسلام الاولى ونهل من مائدة القرآن، كانوا نماذج حية للإنسان الكامل خليفة الله في الأرض .

لقد كانوا يراقبون الله سبحانه وتعالى في الصغيرة والكبيرة ، ويؤمنون إيماناً قوياً بأنهم محاسبون على أعمالهم التي تسجلها الحفظة ويحصيها الله سبحانه وتعالى . وصدق ربي في قوله :

« يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية »(٢) . وأيضاً: « ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » (٣) .

لقد أحس الإمام البخاري بإحساس المسلم المراقب لربه ، أنه اعتدى على حقوق بعض الأفراد ولم يكن حاضراً . وكان يكفيه أن يعلنه بما حدث . وهو أمر ليس بالغالي الثمن . أو المرتفع القيمة . ولكن حسه الإسلامي أرقه وأقلقه حتى أخذ براءة من صاحب الحق .

.. فهل يعتبر اصحاب « الكروش » الكبيرة بما حدث من أمير المؤمنين في الحديث . أم مداومتهم على أكل أموال الناس . والطغيان عليهم طمس على قلوبهم فلا تحس لذع

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧٩
(٢) سورة الحاقة آية رقم ١٨
(٣) سورة الكهف آية رقم ٤٩

الندم ، ولا تخشى عقاب الله .. ولا يفكون في يوم ينصب فيه الميزان . وتستعد جهنم لابتلاع هؤلاء الذين أصبحوا عجولاً بشرية ، فتأكل منهم كما أكلوا من حقوق الآخرين ، وتبدل لهم جلود أخرى كلما التهمتها النار . ليذوقوا وبال أمرهم وعاقبة ظلمهم .

ماحَدَث بَين البُخـاري وَيحيى الذهلي

قدم البخاري نيسابور سنة خمسين ومائتين ، فاستقبله أهل نيسابور بحفاوة وتكريم . ووصف الإمام مسلم بن الحجاج هذا الاستقبال فقال : لما قدم البخاري نيسابور ما رأيت والياً ولا عالماً فعل به أهل نيسابور مثل ما فعلوا به .

وقال محمد بن يحيى الذهلي في مجلسه : من أراد أن يستقبل البخاري غداً فليستقبله فاني استقبله . فاستقبله الذهلي وعامة علماء نيسابور فنزل البلد . فقال الذهلي : لا تسألوه عن شيء من الكلام ، فانه إن أجاب بخلاف ما نحن فيه وقع بيننا وبينه ، وشمت بنا كل ناصبي ورافض وجهمي ومرجيء بخراسان .

وأعلن الذهلي : إذهبوا إلى هذا الرجل الصالح العالم ، فاسمعوا منه فذهب الناس ، فأقبلوا على السماع منه حتى ظهر الخلل في مجلس محمد بن يحيى الذهلي فتكلم فيه بعـد ذلك . (١)

ونحن نتساءل : ما الذي أحدثه البخاري حتى أغضب الذهلي .. ؟

أتكلم البخاري بما يخالف ما عليه أهل نيسابور .. ؟

أخاض في علم الكلام .. ؟

أتناول أحداً بغيبة .. ؟ إن تاريخ البخاري وما عرف عنه من أدب وسلوك تحول بينه وبين ذلك .

إنهم يقولون بأن الإمام البخاري قال: « لفظي بالقرآن مخلوق .» فإن كان حدث منهُ ذلك ؛ فهو يتكلم بما تتكلم به الجهمية والمعتزلة وكل الفرق الضالة ..

ولكن الوقائع التي بين أيدينا تنفي نفياً قاطعاً أن يكون الإمام البخاري قال هذا الكلام أو تلفظ به .

وإذا كان ذلك كذلك . فسنقدم بين يدي القارىء عرضاً موجزاً لفتنة القول بخلـق

---

(١) هدي الساري مقدمة فتح الباري ص ٤٩١

القرآن ، حتى نتعرف على الأسباب التي حدت بالإمام البخاري أن يغادر نيسابور إلى بلده بخارى بعد أن أزمع القيام بنيسابور .

فِتنَة القَول بخَلْق القرآن

كيف نشأت فكرة أن كلام الله مخلوق .. ؟ ومن كان أول المنادين بتلك الفرية .. ؟ وهل كان لهذه الدعوى جذور قبل الإسلام .. ؟

إن المؤرخين يروون في صدد فكرة خلق القرآن سلسلة يصل سندها إلى لبيد بن أعصم اليهودي القائل بخلق التوراة .

فالفكرة يهودية الأصل .

ويقولون أن أول من قال بخلق القرآن في تاريخ الإسلام الجعد بن درهم (١) في العصر الأموي ، ولما فشت مقالته قتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بالكوفة، وقد أتى به مشدوداً في الوثاق عند صلاة العيد ، فصلى خالد وخطب ثم قال في آخر خطبته .

« اذهبوا وضحوا بضحاياكم . تقبل الله منا ومنكم ، فإني أريد أن أضحي بالجعد بن درهم فانه يقول : ما كلم الله موسى تكليماً ، ولا اتخذ الله ابراهيم خليلاً ، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً ثم نزل وقتله . »

وقال مثل ذلك القول الجهم بن صفوان (٢) ، وقد نفى صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى — تنزيهاً له عن الحوادث وصفاتها — وحكم لذلك بأن القرآن مخلوق ، وليس بقديم .

ولما جاء المعتزلة ، انكروا أن يكون الله سبحانه وتعالى متكلماً ، وما ورد في القرآن من أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى تكليماً أولوه بأنه سبحانه وتعالى خلق الكلام في الشجرة ، فهم لا يصفون الله بأنه متكلم ولكنهم يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يخلق الكلام كما يخلق كل شيء ، وعلى هذا الاعتقاد بنوا دعواهم أن القرآن مخلوق لله سبحانه وتعالى .

---

(١) يقول عنه الذهبي في ميزان الاعتدال الجعد بن درهم مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليماً قتل بالعراق يوم النحر .

(٢) جهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي رأس الجهمية قتله نصر بن سيار عام ١٢٨ هـ .

ولقد خاض المعتزلة في حديث خلق القرآن خوضاً شديداً في العصر العباسي وشاركهم بعض الفقهاء ، وكان بشر بن غياث المريس من المصرّين على ذلك القول ، وقد نهاه أبو يوسف أستاذه وصاحب أبي حنيفة فلم ينته فطرده من مجلسه .

ولقد ابتدأ خوض المعتزلة يشتد في عهد الرشيد ، فأخذوا يدعون الناس إلى ذلك فحبس طائفة من المجادلين من هؤلاء المعتزلة ، ولما بلغته مقالة بشر بن غياث قال :

« إن أظفرني الله به أقتله » فظل بشر مستخفياً طوال خلافة الرشيد فلما جاء المأمون أحاط به المعتزلة وكان جل حاشيته من رجالهم فأكرمهم وبالغ في اكرامهم . والسبب في ميله إليهم أنه كان تلميذاً لابي الهذيل العلاف (١) ، وأبو الهذيل من رؤوس المعتزلة .

فلما أحس المعتزلة بهذه المنزلة زينوا له اعلان قوله في خلق القرآن نشراً لمذهبهم ، وليكتسبوا بذلك اجلال العامة واحترامهم ، وصادف ذلك هوى في نفسه فاعلـــن ذلك سنة ٢١٢ هـ وناظر من يغش مجلس مناظرته في هذا الشأن وأدلى فيها بحجته وأدلته .

ولكن في سنة ٢١٨ هـ وهي السنة التي توفي فيها بدا له أن يدعو الناس بقوة السلطان إلى اعتناق فكرة خلق القرآن ، فأراد أن يحملهم على ذلك قهراً وابتدأ ذلك بارسال كتبه ، وهو « بالرقة » إلى اسحاق بن ابراهيم نائبه في بغداد بامتحان الفقهاء والمحدثين ، ليحملهم على أن يقولوا إن القرآن مخلوق .

.. وقد سارع اسحاق بن ابراهيم إلى تنفيذ رغبته فاحضر المحدثين والفقهاء والمفتين ، وفيهم أحمد بن حنبل ، وأنذرهم بالعقوبة الصارمة والعذاب العتيد إن لم يقروا بما يطلب منهم ، وينطقوا بما سئلوا أن ينطقوا به ويحكموا بالحكم الذي ارتآه المأمون من غير تردد أو مراجعة ، فنطقوا جميعاً بما طلب منهم وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب . (٢)

ولكن أربعة رَبَطَ الله على قلوبهم ، واطمأنوا إلى حكم الله وآثروا الباقية على الفانية ، لم يرضوا بالدنية فيما اعتقدوه فأصروا على موقفهم اصراراً جريئاً وهم أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والقواريري ، وسجادة ، فشدوا في الوثاق ، وكبلوا بالحديد ، وباتوا ليلتهم مصفدين في الأغلال ، فلما كان الغد أجاب سجادة اسحاق فيما يدعوه إليه ، فخلوا عنه وفكوا قيوده ، واستمر الباقون على حالهم .

---

(١) هو أبو الهذيل : محمد بن الهذيل بن عبد الله البصري العلاف شيخ المعتزلة ومقرر طريقتهم والمناظر عليها أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء توفي سنة ٢٢٦ هـ .

(٢) احمد بن حنبل : للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة .

وفي اليوم التالي أعيد السؤال عليهم ، وطلب الجواب إليهم ، فخارت نفس القواريري، وأجابهم إلى ما طلبوا ففكوا قيوده ، وبقي اثنان الله معهما فسيقا في الحديد ليلتقوا بالمأمون في « طرسوس » وقد استشهد ابن نوح في الطريق .

وبينما هم في الطريق نعى الناعي المأمون . ولكنه قبل أن يودع هذه الدنيا أوصى أخاه المعتصم بالاستمساك بمذهبه في القرآن ودعوة الناس إليه بقوة السلطان .

وقد جاء في مطلع وصيته : هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين بحضرة من حضره، أشهدهم جميعاً على نفسه أنه يشهد هو ومن حضره أن الله عز وجل وحده لا شريك له في ملكه ، ولا مدبر لأمره غيره ، وانه خالق وما سواه مخلوق ، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل كل شيء ولا شيء مثله تبارك وتعالى .

وجاء في وسط الوصية : يا أبا اسحاق ، ادن مني ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك في خلق القرآن » (١)

ولهذه الوصية لم تنقطع المحنة بوفاة المأمون . بل اتسع نطاقها ، وزادت ويلاتها ، وكانت شراً مستطيراً على المتوقفين من الزهاد والعلماء والفقهاء والمحدثين ، وعلى رأسهم أحمد بن حنبل رحمه الله .

حَقيقَة القَول بخَلق القرآن

القرآن كلام الله تعالى . منه بدا بلا كيفية قولاً ، وأنزله على رسوله وحياً وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البرية .

فلماذا اختلف المسلمون في ذلك .. ؟ وما الذي جعلهم يتجادلون في هذه القضية الواضحة ، ويتخطى الجدال والمخاصمة ، حلقات العلماء ، ليدخل إلى قصور الحكم وأبهة السلطان . ويستعمل سيف الحاكم لارهاب من يقول بما يعتقد أنه الحق . ويرى أنه القول الفصل ؟

إن شارح الطحاوية يجيب لنا على هذه التساؤلات ويحصر أقوال المجادلين في هذه المسألة على تسعة أقوال .

---

(١) احمد بن حنبل : الشيخ المرحوم : محمد أبو زهرة .

أحدها أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعاني ، اما من العقل الفعال عند بعضهم ، او من غيره ، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة

وثانيها : أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه وهذا قول المعتزلة .

وثالثها : انه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار وان عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري (١) وغيره .

ورابعها : أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام وأهل الحديث .

وخامسها : أنه حروف وأصوات . لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً وهذا قول الكراميّة (٢) وغيرهم .

وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته وهذا يقوله صاحب المعتبر ويميل إليه الرازي (٣) في المطالب العالية .

وسابعها : أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره وهذا قول أبو منصور الماتريدي . (٤)

وثامنها : أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات ، وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه .

وتاسعها : أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وهو يتكلم به

---

(١) الأشعري : هو علي بن اسماعيل بن اسحاق بن سالم ، ولد سنة ٢٦٠هـ قال تاج الدين السبكي أبو الحسن الأشعري كبير أهل السنة بعد الإمام أحمد بن حنبل وعقيدته وعقيدة الإمام أحمد رحمه الله واحدة لا شك في ذلك وبه صرح الأشعري في تصانيفه توفي ٣٢٤ هـ رحمه الله .

(٢) الكرامية : زعيمها محمد بن كرام وضلالات أتباعه متنوعة منها أنه دعا إلى تجسيد معبوده ، وذكر أن الله مماس لعرشه ، وقال إن معبودهم محل للحوادث راجع لسان الميزان ج ٥ ص ٣٥٣

(٣) الفخر الرازي : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين المعروف بابن خطيب الري ولد في مدينة هراه احدى مدن الري عام ٥٤٤ هـ من أهم مؤلفاته « مفاتيح الغيب » ويسمى التفسير الكبير توفي في يوم عيد الفطر ٦٠٦ هـ - ١٢٠٩ م

(٤) الماتريدي : محمد بن محمد بن محمود، ابو منصور الماتريدي : من أئمة علماء الكلام نسبته إلى ماتريد « محلة بسمرقند » من كتبه «كتاب التوحيد » و« أوهام المعتزلة » و« الرد على القرامطة » و« مآخذ الشرائع » في أصول الفقه مات بسمرقند سنة ٣٣٣ هـ

بصوت يسمع وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يكن الصوت المعين قديماً وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة (١) .

لقد قال المعتزلة بخلق القرآن وحملوا الناس بقوة السلطان على أن يقولوا : القرآن مخلوق وهذا المقام ليس مجال تفصيل القول في تلك القضية ، ولكن الذي يعنينا هنا : هل قال الإمام البخاري بخلق القرآن وشارك المعتزلة في قولتهم هذه .. ؟ أم أن هذه فرية دعى إليها الحسد والبغض . والتقاتل على عرض الدنيا .. ؟

إننا إذا أردنا تجلية الحق في هذه المسألة فعلينا أن نستعرض أقوال المتهمين للامام البخاري والمدافعين عنه ليكون حكمنا في النهاية قائماً على حجة ومؤيداً بالدليل .

الإمام البخاري والقول بخلق القرآن

قال أحمد بن عدي : ذكر لي جماعة من المشايخ أن البخاري لما ورد نيسابور واجتمع الناس عنده حسده بعض شيوخ الوقت ، فقال لأصحاب الحديث إن البخاري يقول : « لفظي بالقرآن مخلوق » .

فلما حضر المجلس قام إليه رجل فقال : يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أو غير مخلوق .. ؟

فأعرض عنه البخاري ولم يجبه ثلاثاً فألح عليه .

فقال البخاري : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأفعال العباد مخلوقة والسؤال عنه بدعة ، فشغب الرجل وقال : قد قال لفظي بالقرآن مخلوق وقال البخاري : حركاتهم وأصواتهم وكتابتهم مخلوقة ، فأما القرآن المثبت في المصاحف الموعى في القلوب فهو كلام الله غير مخلوق (٢) ، قال تعالى : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » (٣)

وقال أبو حامد الشرقي : سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق ، فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم ، ومن ذهب بعد هذا إلى البخاري فاتهموه ، فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١١٣ تحقيق الشيخ احمد محمد شاكر
(٢) هدي الساري مقدمة فتح البخاري ص ٤٩٤ .
(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٤٩

وقال الحاكم : لما وقع بين البخاري وبين الذهلي في مسألة اللفظ انقطع الناس عـــن البخاري ، إلا مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة . (١)

قال الحاكم : أحمد بن سلمة النيسابوري يقول : دخلت على البخاري فقلت له : يا أبا عبد الله إن هذا رجل مقبول بخراسان خصوصاً في هذه المدينة ، وقد لج في هذا الأمر حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فما ترى .. ؟

قال : فقبض على لحيته ثم قال : أفوّض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد اللهم إنك تعلم أني لم أرد من المقام بنيسابور أشراً ولا بطراً ولا طلباً للرياسة ، وإنمـــا أبت علي نفسي الرجوع إلى الوطن لغلبة المخالفين ، وقد قصد لي هذا الرجل حسداً لما أتاني الله لا غير (٢) .

وقال أبو عمرو احمد بن نصر النيسابوري : أتيت البخاري فقلت له ، يا أبا عبد الله . ها هنا من يحكي عنك أنك تقول : «لفظي بالقرآن مخلوق .» فقال : يا أبا عمر ، احفظ عني : من زعم من أهل نيسابور ، وقومس ، والري ، وهمذان ، وبغداد ، والكوفة والبصرة ، ومكة ، والمدينة أني قلت : لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله . إلا أني قلت : أفعال العباد مخلوقة . (٣)

إن هذه الأدلة التي نقلناها على لسان الإمام البخاري تدل دلالة واضحة على تبرئة ساحته مما نسب إليه ، وإن كان إتهام العلماء ونهش لحومهم سنة لازمت الكثير منهم . ونالوا من جراء ذلك شراً مستطيراً وقلّ أن نجد عالماً كانت له مقالة في أصول الدين اتفق الناس على رأي واحد فيه ولا شك أن الخلاف بين الفرق في الرأي ، وبين الطوائف في السياسة وبين أصحاب المذاهب الفقهية في الفروع كان له آثار بعيدة المدى في الحكم على الموافق ، وعلى المخالف ، إلا من عصم الله من الشرود مع الهوى ، والخضوع للعصبية المقيتة .

ومن هنا وجدنا الأحكام على علمائنا الأعلام مختلفة أشد الاختلاف بل متباينة أشد التباين ومؤسفة أشد الأسف .

ومما يروح عن النفس بعض الشيء ويذهب عنها بعض ما تعانيه ما يروى عن أعرابي أنه دخل المسجد فوجد الناس يصلون ، فدخل معهم في الصلاة فسمع الإمام يقرأ :

---

(١) هدي الساري مقدمة فتح البخاري ص ٤٩٢
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق